دراسة في مصادر علم التجويد ومباحثه من خلال التراث اللغوي العربي

أ. ابــو بــكر حسيــني
جامعة ورقلة

تمهيــد :

يعد علم التجويد من أشرف العلوم ، لتعلقه بالنص القرآني مباشرة. هدفه العام صيانة الألسنة من الوقوع في الخطأ حال التلاوة، إذ المسلمون متعبدون بسلامة لفظه مثلما هم متعبدون بتطبيق أحكامه .

إن البحث في مصادر علم التجويد يدفعنا إلى الغوص في أغوار تراثنا الضخم بمختلف اختصاصاته ، ومحاولة الكشف عن نقاط التقاطع بين مختلف علومه وفنونه ، ولا يخفى على أحد أن هذا العمل ليس بالأمر الهين، لكنه يحتاج إلى جهد ووقت وخبرة ، وعزاؤنا في محاولاتنا المتكررة، والشاقة في أكثر الأحيان هي المتعة الروحية والعلمية التي نجدها في كل علم أو فن له صلة بتجويد القرءان ، كتاب الله ، كتاب المسلمين الأول.

كما إن الحديث عن مباحث علم التجويد يتطلب منا التمعن في أنظمة هذا العلم وقواعده بدقة وتركيز لمعرفة مدى صلته بالعلوم والفنون الأخرى ، وذلك للكشف عن مختلف الروافد التي تتصل بهذا العلم فتجعله أكثر مرونة وصلة بباقي فروع العلوم والمعرفة .

ولا شك أن حظ الدراسات اللغوية عموما ، والصوتية على وجه التحديد ، في علم التجويد أوفر من غيرها ، لأن التجويد أداء صوتي بالدرجة الأولى ، مع مـا يتبعه من قواعد وأحكام ، ونحن في هذه المداخلة الموجزة نحاول الكشف عـن أهـم مصادر هذا العلم ومباحثه من خلال التراث اللغوي العربي لتكون بمثابة المعلم الكاشف في رحاب علوم القرءان الواسعة.

1- تحديد المصطلح :

إذا تأملنا القرءان الكريم وجدنا النص القرآني لم يستعمل مصطلح " التجويد " ، ليدل به على الأمر بحسن التلاوة ، في حين استعمل مصطلحات أخرى ، مثل التلاوة والترتيل والقراءة . قال تعالى في " التلاوة" : [الذِينَ ءَاتَيناهُمُ الكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِه أُولَئِكَ يؤمِنُون بِه] (البقرة : 121) ، و[وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ] (يونس : 61) ، [اُتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ الكِتَابِ](العنكبوت : 54) ، وغير ذلك من الايات، وقال في " القراءة" : [فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ القُرْءَانِ] (المزمـل : 20) ، و[فَإِذَا قَرَأْتَ القُرْءَانَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ] (النحل : 98) وقال في "الترتيل" : [وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً] (الفرقان : 32) ، وقال [وَرَتِّلِ القُرْءَانَ تَرْتِيلاً](المزمل:4) وغير ذلـك مـن الآيات والشواهد .

ومع أن النص القرآني لم يستعمل مصطلح "التجويد" ، فإن هـذا المصـطلح احتل الصدارة في الدلالة على هذا العلم وهو تلاوة القرآن . استعمله العلماء قـديما وحديثا ، وألفوا فيه الكتب والمصنفات . والسبب في نظرنا يعود إلى أن :

أ – لفظ التجويد عام ، ولفظ الترتيل أو التلاوة خاص . وربما دل على مرتبة من مراتب الأداء القرآني

ب- لفظ التجويد دال على الحسن والإتقان والإجادة ، وذلك مما يناسـب القيمة الروحية للقرآن الكريم

ج- تواتر هذا المصطلح منذ نشأة هذا العلم أكسبه حق الاستعمال ، حيث تلقاه العلماء والقراء وأهل الأداء بالقبول ، ولم نجد من رده أو استبدل به غيره.

ومما يعرف عن مراحل نشأة هذا العلم أن أول من استخدم مصطلح " التجويد " بالمعنى الذي نقصده الصحابي الجليل عبد الله[1] بن مسعود (رضي الله عنه) ، حين قال : " جودوا القرءان وزينوه بأحسن الأصوات" ولذلك يبدو أن نشأة هذا العلم جاءت أستجابة لدعوة ابن مسعود ، ومحاولة لتقنين قواعد التلاوة ، لا سيما بعد انتشار اللحن[2].

2- نشأة علم التجويد :

لم تكن الأمة العربية في حاجة ماسة إلى معرفة قواعد اللغة وقوانينها ، لأنهم كانوا يتكلمون العربية على السليقة من غير ما تكلف . فالفصاحة طبعهم ، والبيان سجيتهم ، ولما جاء الإسلام ونزل القرآن سحرهم ببيانه وشدهم بفصاحته وبلاغته ، فراحوا يتبارون في حفظه وترتيله لما رأوا فيه من السمو الروحي والرقي اللغوي ، لكن بعد أن توسعت رقعة الإسلام واختلط العرب بغيرهم من العجم ، بدأ اللحن يفشو في الألسنة العربية ، فكان من شدة حرص المسلمين على إسلامهم وقرآنهم ولغتهم أن قاموا لمواجهة هذا الداء الخطير، فجمعوا شتات اللغة ، وأفردوا لها ما سمي بالمعاجم والقواميس ، كما وضعوا أصولا وقواعد أسموها "علم النحو" لصيانة ألسنة الناس من الوقوع في الخطأ حال النطق خدمة "للنص القرآني"[3].

هذا عن أسباب وضع النحو ، وللأسباب نفسها تقريبا وضعت قواعد التجويد ، وضبطت القراءات ، وذلك عندما كثر الاختلاف بين الناس فيما يحتمله رسم المصحف ، فقرأ أهل البدع والأهواء بما لا يحل لأحد تلاوته وفقا لبدعهم وأهوائهم . فقرأ المعتزلة : [وَكَلَّمَ اللهَ مُوسَى تَكْلِيمًا] [4]، وقرأ بعض غلاة الرافضة : [وَمَا كُنْتَ مُتَّخِذَ الْمُضَلَّيْنِ عَضُداً] [5]،رأى المسلمون أن يجمعوا على قراءات أئمة ثقات ، تجردوا للاعتناء بشأن القرآن ، فاختاروا من كل مصر وجه إليه مصحف ، أئمة مشهورين

بالثقة والأمانة وكمال العلم[6]. ووضعوا ميزانا يرجع إليه في صحة القراءات ومعيارا يعول عليه فيها ، وهو السند والرسم والعربية ، فكل ما صح سنده واستقام وجهه على العربية ووافق لفظه خط المصحف الإمام ، فهو من الأحرف السبعة المنصوص عليها في الحديث[7].

لقد قام القراء بوضع قواعد ليترسمها المبتدئون من الناشئة وغيرهم ، وهي قواعد تنأى بهم عن الخطأ حال تلاوتهم للقرآن . وهذه القواعد في حقيقتها لم تكن تنطبق إلا على النص القرآني ، لأن النصوص النثرية أو الشعرية لم تكن تقرأ بالمد ولا بالغن ولا بالسكت ، لأن الناس لم يكونوا في حاجة إلى تأمل تلك النصوص وتدبرها بقدر ما هم في حاجة إلى تدبر النص القرآني ومن هذا المنطلق انفصلت قراءة القرآن وتلاوته عن أسلوب القراءة في غيره من نصوص الشعر أو النثر[8].

والقراء عند وضعهم لهذه القواعد لم يأتوا في الأمر بدعا ، بل كانوا في كل ذلك أتباع رواية وتلاميذ مدرسة ، توارثوا طريقة النطق جيلا عن جيل ، حيث احتفظوا في نطقهم بتلك الخصائص الصوتية المتوارثة المروية عن النبي (صلى الله عليه وسلم)، وغاية جهدهم أن يتمثلوا قراءته (صلى الله عليه وسلم) ، فوضعوا قواعد المد والقصر والإدغام والغنة والتسهيل والإخفاء ، وغير ذلك من الحكام ، محاولة منهم تقعيد الكيفية المروية بشان تجويد القرآن[9].

3 – مصادر علم التجويد :

يراد بها المواضع التي يستقي منها العلم قواعده وأحكامه ، وشأن علم التجويد في ذلك شأن بقية العلوم . ولعلم التجويد نوعان من المصدر عبر التاريخ ، مصادر مسموعة ومصادر مكتوبة .

أ – المصادر المسموعة :

إن النموذج الأول والأساس في تجويد القرآن هو الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، إذ أن قراءته تمثيل الصيغة المثلى في الترتيل والإتقان والتجويد ، استجابة لنداء الله

تعالى : [وَرَتِّلِ الْقُرْءَانَ تَرْتِيلاً] (المزمل : 4) ، يلي ذلك الصحابة الكرام الذين تلقوه بأسماعهم وقلوبهم من الرسول (صلى الله عليه وسلم) مباشرة ، أمثال الخلفاء الراشدين . ويلي هذه الطبقة التابعون من الرعيل الأول الذين تلقوا القرآن من أفواه الصحابة الكرام ، فكانوا أئمة في ذلك ، ثم القراء العشرة الذين تلقى المسلمون قراءاتهم بالقبول والرضى، وهم : نافع (ت : 169 هـ) ، وابن كثير (ت : 120 هـ) ، وأبو عمرو بن العلاء (ت : 154 هـ)، وابن عامر (ت : 118 هـ) ، وعاصم (ت : 127 هـ) ، حمزة (ت : 156 هـ) ، والكسائي (ت : 180هـ)، وأبو جعفر القعقاع (ت : 130 هـ) ، وأبو إسحاق الحضرمي (ت : 205 هـ) ، وخلف بن هشام (ت : 229 هـ). وغير هؤلاء من الرواة وأصحاب الطرق.

أما الطبقة الموالية فهم المقرئون في العصور المتأخرة إلى عصرنا هذا ، أمثال شيخ المقارئ المصرية محمود خليل الحصري ، وعنتر مسلم ، والمرحوم عبد الباسط عبد الصمد ، ومحمد صديق المنشاوي ، وعبد الرحمن الحذيفي ، وعلي جابر . أضف إلى ذلك الشيوخ والأئمة ، وبخاصة شيوخ الزوايا الذين مهروا في تلاوة القرآن وحفظه.

إلى هنا نكون قد وضعنا شبه إطار عام للمصادر المسموعة من لدن الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى يومنا هذا. ولا يسعنا في أيامنا هذه إلا أن نتبع تلاوة المقرئين الموثوق بهم ، مع الاستعانة بالمصادر المكتوبة.

ب – المصادر المكتوبة :

وهي على ستة أقسام مرتبة بحسب أهميتها :

ب–1–كتب علم التجويد : وتعد مصادر أساسية في التعرف على هذا العلم ، فهي تهتم بتصحيح الألفاظ وتقويم النطق وتوضيح كل الأحكام المتعلقة به ، كما تشير إلى طرق القراءة وأساليبها . ومن تلك الكتب[10] : "التحديد في الاتقاق والتجويد" للإمام الداني ، وكتاب "التمهيد في أحكام التجويد" لابن الجزري ،

وكتاب "تنبيه الغافلين وإرشاد الجاهلين" لعلي النـوري الصفاقسـي (ت : 1118 هـ).

ب-2-كتب القراءات القرآنية : التي تتعرض لأوجه الاختلاف بين القراء في الأداء القرآني ، كما تشير إلى أصول القراءة المطردة ، كالإدغام الكبير عند أبي عمرو ، وأحكام هاء الكناية ، والمد والقصر ، وأحكام الهمز المفرد والمزدوج ، والإمالة ... وتبين مذاهب القراء في ذلك . وهذه المسائل هي من صميم علم التجويد ومباحثه ، وقد صنفت في هذا المجال مصنفات كثيرة ، وكان أول مـن صنف فيـها – كما يذكر حاجي خليفة[11] – هو أبو عبيد القاسم بن سلام (ت : 224 هـ) ، وأول كتاب أفرد القراءات السبعة في كتاب مستقل ، باعتبارها القراءات المتـواترة والـتي حققت في عرف العلماء شروط الصحة والتواتر في القراءة ، هو كتاب "السـبعة في القراءات" لابن مجاهد[12] ، أضف إلى ذلك كتاب : الحجة في القراءات السبع " لابـن خالويـه " (ت : 370 هـ) ، وكتاب "المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات " لابن جني (ت : 392 هـ) ، وكتـاب " الإبانة عن معاني القراءات "و" الكشـف عن وجوه القراءات السبع وعللها "و" الرعاية لتجويد القراءة" وكلها لمكي بـن أبي طالب (ت : 437 هـ).

ولعل الكتاب الذي ذاع صيته عند العلماء قديما وحديثا ، وحاز مرتبة عظيمة في الثقة ، كتاب " التيسير في القراءات السبع" للإمام أبي عمرو الداني .

ب-3- كتب علوم القرآن : التي تخصص –غالبا– أبواب لكيفيات القـراءة والتجويد ، مثل : قواعد الوقف والابتداء ، وأحكام الإمالة والفتح وبين اللفظـتين ، وقواعد الإدغام والهمز ، وغيرها من المباحث التي تعين على فهم علم التجويد ، ومن تلك الكتب : كتاب " البرهان في علوم القرآن" للزركشي(ت : 494 هـ) وكتاب "الإتقان في علوم القرآن" للسيوطي (ت : 911 هـ) ، و"مناهل العرفان" للزرقاني.

ب ــ4ــ كتب التفسير : تشير من حين إلى آخر إلى أوجه القراءة وكيفياتها ، لا سيما إذا كانت هذه الأوجه مما يتغير معه المعنى ، مثل قوله تعالى (وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاء) (آل عمران :37) ، فتقرأ بالتشديد في (كَفَّلَهَا) والنصب في (زكريَاءَ) او بالتخفيف في (كَفَلَهَا) والرفع في (زَكَرِيَاءُ) . ومن تلك الكتب : تفسير الطبري (محمد بن جرير) (ت : 316 هــ) وكشاف الزمخشري (ت : 528 هــ) ، ومجمع البيان للطبرسي (الفضل بن الحسن) (ت : 548 هــ) ، وتفسير الفخر الرازي (ت : 606 هــ) ، و " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي (أبي عبد الله محمد بن أحمد) (ت : 671 هــ) ، وتفسير النسفي (عبد الله بن أحمد) (ت : 710 هــ) المسمى " مدارك التنزيل " و" البحر المحيط في التفسير" لأبي حيان الأندلسي(ت: 754 هــ)

وتفسير الشوكاني" (محمد بن علي) (ت : 1250 هــ) و " روح المعاني " للألوسي (ت : 1270 هــ) .أضف إلى ذلك كتب معاني القرآن التي تحذو حذو كتب القراءات أحيانا ، وكتب التفاسير أحيانا أخرى ، مثل : معاني القرآن للفراء (أبي زكرياء يحي بن زياد) (ت : 207 هــ) ، ومثله للأخفش الأوسط (ت : 211 هــ) ، و " تفسير غريب القرآن " لابن قتيبة (ت: 276 هــ) ، وتأويل المشكل له أيضا .

ب ــ 5 ــ كتب الدراسات اللغوية : ونشأت أساسا لدراسة اللغة العربية حفاظا على النص القرآني فتعرِضُ كثيرا من المسائل الصوتية والصرفية والنحوية ، مما يتعلق بالتلاوة ، كظاهرة الإمالة . والهمزة ، كما تتناول مخارج الأصوات وصفاتها ، والتغيرات الصوتية والصرفية ، من إدغام وإقلاب ومد وتسهيل ، وما إلى ذلك من المسائل ، ومن تلك الكتب : " كتاب العين " للخليل بن أحمد الفراهيدي (ت : 175 هــ) ، والذي حوى مقدمة صوتية ضمنها كثير ا من المباحث التي لها علاقة جد وطيدة بالتجويد . وكتاب سيبويه (أبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر) (ت :

180 هـ) ، الذي يعد مدونة أساسية في علم العربية ، ومصدرا يحتل الصـدارة في كتب العربية ، فقد تناول في ثناياه مسائل عدة تتعلق بالتلاوة ، كما أفرد في آخره بابا تناول فيه ظاهرة الإدغام في العربية . كان لهذا الباب فضل كبير في تقنين كثير مـن القواعد الصوتية والصرفية المعتمدة في علم التجويد ، وتوالت التصانيف بعد سـيبويه فكانت تحذو حذوه ، وتنهل من معينة ، فتنقل حينا وتشرح آخر وتقلـد وتبـدع ، ككتاب "الخصائص" لابن جني (أبي الفتح عثمان) (ت : 392 هـ) وسر الصناعة له ، ورسالة " أسباب حدوث الحروف " للطبيب ابن سينا (ت : 428 هـ) وكتـاب "المفصل" للزمخشري ، وشرحه لابن يعيش (موفق الدين)(ت : 643 هـ)، وغيرها في تراثنا كثير.

ب–6– المعاجم اللغوية : حيث تستشهد في أحايين كثيرة بالآيات القرآنيـة ووجوه قراءتها ، كما لها دور كبير في شرح كثير من المفاهيم المتعلقـة بالتجويـد وتوضيحها ، كالإمالة والتسهيل والإدغام والتفخيم والاختلاس ، والروم وغيرها ، من ذلك :"الصحاح" للجوهري (ت : 393 هـ) ، و"التهذيب" للأزهري و"أسـاس البلاغة" للزمخشري ، و"القاموس المحيط " للفيروزآبادي (ت : 817 هـ) ، و"تـاج العروس" للزبيدي (ت : 1205 هـ) ، و" لسان العرب المحيط" لابن منظور (ت : 711 هـ).

هذه جملة من المصادر المكتوبة التي نستقي منها علم التجويد ، مرتبة بحسـب أهميتها وأولويتها . ولا نغفل في هذا المقام الدراسات اللغوية الحديثة ، التي هي بمثابـة الضوء الكاشف عن غوامض ما وصلنا من التراث الضخم في شتى المجالات ، لاسيما فيما يتعلق منها بالدراسات الصوتية ، والتي أهتمت أساسا بتصحيح النطق وسلامته ، وكان مدارها النص القرآني على الخصوص .

4- مباحث علم التجويد :

إن الدارس لعلم التجويد يلاحظ أن كثيرا من العلوم اللغوية وغير اللغوية قـد شاركت في بلورة قواعده وقوانينه وإقامة هيكله ، فأضحت تشكل المحاور الأساسـية لهذا العلم ، لذلك لا نعجب إذا رأينا كثيرا من الأئمة القراء كانوا نحاة ولغويين ، بل كان بعضهم من أئمة المدارس النحوية ، كأبي عمرو بن العلاء (ت : 154 هـ) في مدرسة البصرة ، والكسائي (ت : 180 هـ)في مدرسة الكوفة.

وعلم التجويد في مجمله اتحاد علوم لسانية مختلفة هدفها العام خدمـة الـنص القرآني في سلامة تلاوته وفهم معانيه ، واشتمل علم التجويد ، انطلاقـا مـن هـذا الأساس على مباحث عدة ، مباحث لسانية ؛ وأخرى غير لسانية.

4 -1 - المباحث اللسانية : والمراد بها المباحث التي تتعلق بالدراسات اللغوية صوتية أو صرفية أو نحوية أو دلالية ، وإن كانت هذه المباحث في نظام علم التجويـد متداخلة ، بل لا نستطيع فصل بعضها عن بعض في كثير من الأحيان.

أ - المباحث الصوتية : يتناول علم التجويد مباحث صوتية كثيرة كأحكـام المد والإشمام ، والروم ، والإختلاس ، كما يهتم بدراسة مخارج الأصوات وصفاتها ، من همس وجهر وشدة ورخاوة ، وتفخيم وترقيق ، وغنة وقلقلة ، وغير ذلك مما يعين على حسن النطق بالأصوات ، لأن التجويد في أساسه أداء صوتي للنص القرءاني.

ب- المباحث الصرفية : يهتم أيضا بدراسة الصيغ ، وما يعتريها مـن زيـادة ونقصان ، فيبحث في نظام الإمالة والفتح وكذا التغييرات الصرفية من إعلال وإدغام وقلب وإبدال ، ونقل وتشديد وتخفيف ، وغيرها ، لأن إحسان النطق بالصيغ تبعا لما لحقها من تبدلات يعين على إجادة التلاوة .

جـ- المباحث النحوية : بالإضافة إلى اهتمام التجويد بالأصوات والصـيغ ، يهتم أيضا بالتراكيب ، لأن الكلمة لا تكتسب معناها إلا من خلال سياق ، وكذلك عند مجاورتها لغيرها من الكلمات ، كالبناء والإعراب والتقدم والتأخير وغيرها . ولهذا